ـي حقل النار!

إذا صح التعبير، وفي شريحة كبيرة أخرى فريق يميل إلى الثبات لا إلى التغيير. وإذا كان الاتجاه الفلولي رجعي المتجه، فإن الآخر «محافظ» بكل تأكيد، فيكون المركب «الرجعي-المحافظ» سنداً «متطوعاً» للنظام الحاكم الجديد. ونذكر هنا صفة «التطوع» أخذاً بعين الاعتبار ذهاب الرجعيين بالذات إلى النظام الجديد ورئيسه القوي منذ اللحظة الأولى، ليس على سبيل «التبرع» بطبيعة الحال، ولكن لمصلحة غاية في نفس يعقوب. أما «المحافظون» من أنصار «حزب الكنبة» – كما يقولون – فيدافعون عن «بقاء الوضع على ما هو عليه» خوفاً من التغيير الذي «يقطع الأرزاق» ويزرع الخوف في النفوس.

وبين مصالح أصحاب المصالح ومشاعر

الكتلة الخائفة من التغيير، يصبح النظام السياسي الوليد قلقاً غير مرتاح، وكان يتمنى لو أن ظهيره السياسي غير ذاك، من بين قوى «تحالف الثلاثين من يونيو» المجهض بفعل فاعل غامض على كل حال.

ولما كان «الوضع الحاكم» المتحول تدريجياً إلى «نظام حكم» Ruling Regime، مفتقداً في فترة الانتقال إلى ظهير سياسي قوي من أي نوع، فقد كان من طبائع الأمور، في غيبة «حزب سياسي حقيقي مساند للرئيس» أن تقوم «الأجهزة» بالمهمة، وخاصة أجهزة «الأمن الوطني» بخبرتها العريقة في تشكيل وانفراط التحالفات السياسية عبر أربعة عقود.

أما عناصر «يسار الوسط» – كما يقال – وبعض «يسار اليسار» وقليل من «الوطنيين – التقدميين» الذين ينظرون إلى الأمام في أمل كبير، في غير قطيعة مع النظام الحاكم، أو في توافق أولّي معه على الخطوط العريضة، فهؤلاء يبقون على الهامش أو هوامش الهامش، يقبضون على الجمر، ولو احترقت أصابعهم، أو اكتوت بنيران الأصدقاء والأعداء من كل حدب وصوب. تلك هي مكونات المسار الأول -الحاكم- في الأفق السياسي المصري المنظور.

أما المسار الثاني فهو خاص بأولئك المعارضين والمعادين للوضع الحاكم من غلاة «الليبراليين» ومن بعض أقسام اليسار بما فيه اليسار «الفوضوي» للاشتراكيين الثوريين، بل ماذا نقول؟ من الإسلامويين أيضاً في جملتهم، بمن فيهم «الإخوان المسلمون». يتشكل على مهل عبر الزمن بطيء الخطى تحالف جبهوي عريض يعيد سيرة تحالف جبهوي سبق بناؤه خلال فترة 2000-2010 للمواجهة السياسية لنظام مبارك، وما يدرى البعض منهم أن قواعد العمل الجبهوي (حيث الأفضلية للأقوى) تعطي جماعة «الإخوان» وتيار «الإسلام السياسي» الأفضلية النسبية المقارنة في جميع الأحوال.

يتناسى أعضاء التحالف الجبهوي (المعارض – المعادي) خلافاتهم العقائدية، وينحّون انتماءاتهم السياسية المحددة جانباً. يتنادون بكراهية سجل الوضع الحاكم من القبض أو «الاعتقال» العشوائي، و«الاختفاء القسري»، والمحاكمات السريعة عسكرية كانت أو شبه مدنية، والتعذيب داخل أقسام الشرطة والسجون، وتكديس أربعين ألفاً وراء الشمس فيما يقولون. ومن وراء كل ذلك، فيما يذكرون، استعادة فظّة لحكم الفرد و«الفاشية!» ذات الطابع العسكري التي تستند إلى قوى الأمن و«تحالف الجيش والشرطة»، والأذرع الإعلامية «القذرة»، حسب أقوالهم المردّدة الشهيرة.

وما بين المسارين، الشاطر والمشطور، يقف الجمهور العريض (الطازج) و«الساذج – على الفطرة» إن شئت، يأبى بفطرته (السليمة في رأينا) مشهد الفوضى العارمة الممكنة، وأرتال الكتائب المتناحرة في كابوس اقتتال أهلي محتمل، حيث تغشى، في الأقل، ظلال الاضطراب الأمني والتدهور الاقتصادي المقيم. ومن ثم يقف الجمهور حائط صدّ عريض، يمنع جحافل المسار الثاني من المركب النخبوي (المدني – الإسلاموي) المعارض في بعضه، ومعاد في بعضه الآخر، للنظام ورئيسه القوى العنيد الذي يبدو كمحارب من أجل حفظ

> **تمضي قافلة النظام الحاكم الوليد بأمل الإنجاز الاقتصادي والعسكري**

كيان الدولة الوطنية في وجه تهديد قوي من مصادر داخلية وخارجية متنوعة.

يلعب المساران على وتر الزمن، إذ يعّول المسار الأول على إنجاز اقتصادي-إنمائي، وانعاش عاجل ونموّ آجل، وبناء هيكل قوة الدولة، وفي مقدمتها القوة العسكرية المصرية البازغة في خضم الاضطراب الإقليمي والدولي، من طائرات قاذفة ومقاتلة (رافال الفرنسية) وسفن حربية حاملة للمجنّحات (ميسترال فرنسية أيضاً) وصواريخ (إس 3 الروسية) وغواصات (ألمانية) وصناعة عسكرية محلية في كل من «الهيئة العربية للتصنيع العسكري» و«الشركة القابضة لقطاع الإنتاج الحربي» – ولو عن طريق «التجميع» - للدبابات وعربات نقل الجنود وقوازف وقذائف المدفعية، وغيرها كثير.

وإلى جانب بناء القوة عسكرية، قوة طاقوية من اكتشافات الغاز بواسطة شركة «إيني» الإيطالية كأحد أكبر الاكتشافات في المتوسط خلال العقد الأخير، ومن المحطة النووية ذات المفاعلات الثمانية على «الساحل الشمالي» بمشاركة روسية، تساندها منظومة لمولدات الطاقة من الغاز والفحم والشمس والرياح، بمعونة شركة «سيمنس» الألمانية، وشبكة القطارات والسكك الحديدية مع الصين، إضافة إلى استصلاح واستزراع الأراضي الصحراوية و«عاصمة إدارية» نموذجية بين محور قناة السويس وحد الصحراء الشرقية على تخوم القاهرة، إلى جانب مشروع بناء ثمانية مناطق تكنولوجية تبدأ باثنتين في ضواحي الإسكندرية وأسيوط، ومدن صناعية كمدينة للرخام في سيناء، وأخرى للجلود قرب القاهرة في منطقة «الروبيكي»، ومشروع تحديث مصانع الغزل والنسيج التليدة في «المحلة الكبرى» و«شبرا الخيمة» و«كفر الدوار»، وإقامة قاعدة لصناعة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، انطلاقاً من «القرية الذكية» على طريق القاهرة-الاسكندرية الصحراوي...

كل ذلك باستخدام رافعة «الهيئة الهندسية للقوات المسلحة» في وجه تقاعس وعجز جماعة رجال المال والأعمال الخواص بعد هدم الكيان التاريخي للقطاع العام «الناصري». يضاف لما سبق، العمل من أجل إقامة شبكات وسلاسل للتجارة الداخلية والتوزيع، أملاً في تحقيق الوفرة من العرض السلعي وخفض معدل التضخم برغم الإحجام الحكومي المريب - بدعوى الاقتصاد الحر» الزائفة- عن ممارسة الدور الريادي الضروري للدولة عن طريق مراقبة هوامش النفقات والأسعار، والضبط الإداري للواردات، واستبدال الواردات بالإنتاج المحلي.

وأما ما يطالب به البعض -من مشارب متباينة- من ضرورة إعداد وإعلان «رؤية» استراتيجية تحدد على نحو صارم خطى المستقبل القريب والبعيد، فإن قافلة النظام الحاكم ربما ترى أن أفضل طريق للتعامل مع موضوع «الرؤية» – في ظل العالم المضطرب الراهن دولياً واقليمياً وعربياً ومحلياً – هو ألا تكون هناك رؤية كاملة معلنة سلفاً في الفضاء الكبير، ما دمت تحقق في الحقل رؤيتك التي يعرفها ويمكن أن يستنبطها الجميع.

تمضي قافلة النظام الحاكم الوليد إذن، بأمل الإنجاز الاقتصادي والعسكري، تتحدى فقرها السياسي الذي صنعته ظروف ثقال موغلة في بُعد الزمان، وتحاول جاهدة أن تتعدى مسار المعارضة اللاهبة والعداء العميق؛ ولسان حالها يقول بالألم وبنشوة المريض المتعافي: دع القافلة تسير والذئاب تعوي! للأسف!

فإلى أين المصير؟ ذلكم السؤال المعلق الكبير الذي قد ندلف إلى رحاب إجاباته المراوغة في وقت قريب!

* أستاذ في معهد التخطيط القومي ـ القاهرة

جهد يوم كامل. قيل إن علامة الاستفهام (؟) كانت علامة تعجب (!)، لكن انحنى ظهرها من كثرة التساؤل... وها أنا الآن أخشى عليكم أن يحدث لكم ما حدث لعلامة التعجب، كما أخشى على أحبتي وعلى من يقرؤون حروفي من أن تصيبهم كثرة التساؤل بأمراض تحني ظهورهم وتحولهم إلى علامات استفهام بلا أجوبة مقنعة.

في المدة الأخيرة وبموازاة هجرات الغربة والسفر والرحيل، كثرت تلك التجمعات الخاصة التي تشكل نوى رومانسية حالمة تدعو للتمسك بحلب والدفاع عن سوريا بصورتها الجامعة الشاملة وميزتها الحضارية المتنوعة. النقاشات في الوضع الراهن ومحاولة متابعة الأحداث واستقراء المستقبل والإنصات لرياحه القادمة تشكل هاجس كل السوريين وقهوتهم الصباحية ورغيف وجباتهم اليومية. يقول أحد الأطباء الذي يرفض الخروج منها: حلب ترمز لأشياء كثيرة في حياتنا قد لا تمنحنا الأقدار فرصة معركة شرف واحدة. سوريا هي معاركنا كلها، وفي قلبها حلب. معركة القيم والمبادئ، سوريا تدافع عن نفسها، فلقد أحبتهم وصادقتهم وحمتهم فغدروا بها، فتحت [لهم] أذرعها فعاجلوها بخناجرهم في ظهرها.

ستجد في حلب من يمارس قرار الصمود «كمازوشية» مقدسة. يرفض المغادرة رغم امتلاكه القدرة والإمكانيات لتأمين فرص الهجرة والرحيل والعمل بظروف مدن العالم الكبرى. ستجد في حلب مئات المنظرين السياسيين وقراء التحولات الاستراتيجية يتكلمون ويكتبون ويناقشون فلا يكترث لهم أحد. بينما قد تسمع عن صوفي أو صاحب طريقة أو شيخ يشرح لأتباعه عن أخطار الخروج وأن سفينة الدين تجري في سورية منذ عقود بسلام، وأنه لا فائدة من خرقها أو عرقلة سيرها الآمن فيتبعه الآلاف ويطيعون أوامره فتستمر كل الشخصيات الدينية الوازنة بخطها المعهود في تدريس ونشر الإسلام السوري الشامي المعتدل بأشكاله المتأصلة [الحنفي والشافعي والصوفي] بعيداً عن التأثيرات الواردة من دول النفط والمحملة بالتضييق والتكفير بما يناقض فعلياً زمناً طويلاً من الفهم والتعايش والاندماج منذ قرون طويلة بين الأعراق والمذاهب والأديان، فأنى لرياح السموم أن تؤدي إلى تداعي وتصدع صخور الشهباء الراسيات!

كلّ يحب حلب على طريقته، وحلب ليست مكاناً حصرياً للقديسين والنبلاء والشجعان والأبطال، ففيها انتهازيون يقفزون من ضفة لضفة أخرى، وفيها تجار صغار تتضخم أرصدتهم البنكية باستمرار ويهوون ارتفاع الدولار ويعشقون رنين الذهب وكنز السحت. مسكين أنت يا وطني! يأكلُك الأغنياءُ ويدافع عنك الفقراء. تظلُّ تُسمِّن أبناءَك وعندما تحلُّ المخمصة يهربون بشحومهم المكتنزة

> **ستجد في حلب من يمارس قرار الصمود كـ«مازوشية» مقدسة**

إلى حيث أعداؤك يتآمرون. يأكلون بنهم من قصعتَك ثم فيها يغسلون أيديهم وأرجُلهم ويتخلصون من درنهم ثم يتمضمضون، وفيها يبصقون.

من لم يعرف الحضارة واحترم التنوع والتعايش في حلب، ولم يتعلم الحب والحياة والإنسانية فيها فلن يتعلمها في أي مكان في العالم. من عاش في حلب ولم يتسع قلبه لكل البشر فقد أكل وشرب حصة لا يستحقها من خير سوريا. من مشى على حجارة أرصفة أسواق حلب وحاراتها القديمة، ولم يردعه تعاقب الأمم الكثيرة البائدة على هذه الأحجار الصماء من أن يتواضع مع خلق الله وأن يكف لسانه ويده عن الشر، فقد تودع منه ولا أمل فيه ولا خير... ولو مشى على الماء أو طار في الهواء.

تنتهي حوارات الحلبيين دائماً بالدعاء «الله يفرجها ويحلها من عنده»، وهي كناية عن أنهم صابرون رصدوا ذلك الانهيار الأخلاقي والمجتمعي وحجم الخراب الرهيب الذي أفرزته بعض الطبقات الحانقة من السوريين ومن المصدَّرين إليها من صحارى الأعراب وفيافي الربع الخالي. عقولهم ليست قادرة على أن تلمس نوراً ولو خافتاً في نهاية النفق يمكن أن ينبثق عندها حل ما... لم يجدوا الحلَّ على الأرض فطلبوه من السماء... يؤمنون بذلك ملء قلوبهم المطمئنة.

إن الحكم على وضع سوريا عموماً وحلب بشكل خاص - وهي في قلب الحرب - والتصوير كأن هذا سيكون حالها الدائم والأزلي ولا أمل ولا مجال للعمل أو النجاة أو للإصلاح، يمثل «خللاً منهجياً» يلغي عمراً طويلاً عشناه في هذا البلد كنا ننهل منه بغير حدود، وعندما أصابه الوهن والتعب والإرهاق في فترة قصيرة (خمس سنوات)، قرر بعضنا أن هذه البلاد لم تعد صالحة للحياة فيها وأنها غير ملائمة لأحلامه.

بلدنا في سرير المرض وليتخيل قراؤنا الكرام لو أن الأطباء تركوا المرضى على أسرة العلاج أو في غرف الإنعاش، وقالوا: ليس ثمة أمل، وغادروا واجباتهم جميعاً. عندها سيتحولون إلى عمال تأبين أو موظفين في جبانات دفن الموتى.

هذه العروس الجميلة الحاملة لأجمل قيم الحضارة والإنسانية، هذه الفاتنة المشوقة المشرفة أصابها الوهن بغدرنا وجهلنا وتقصيرنا، فاستلقت من تعبها وصدمتها وأصابها الإعياء ونوبات الوسن والإغماء... فهلّا وقفنا إلى جانبها في مرضها وأعطيناها جزءاً مما منحتنا من حب ورعاية واهتمام؟

* كاتب سوري